ردود على الرفاق[1] حول الماركسية وقضايا علم اللغة[2]

جواب الى الرفيق ا. كراشنينكوفا

بقلم: جوزيف ستالين

1 - المصدر: جوزيف ستالين، كراس "الماركسية وقضايا علم اللغة"، الطبعة العربية، المكتبة الاشتراكية، دار دمشق للطباعة والنشر، ترجمة حنا عبود، ص.ص. 55 – 71.

2 - العنوان الأصلي للفصل في الكراس هو "ردود على الرفاق". لكننا اضفنا اليه "حول الماركسية وقضايا علم اللغة" بغية الايضاح كوننا نسخناه منفصلا عن باقي اجزاء الكراس الورقي. - ملاحظة الصوت الشيوعي.

الى الرفيق زانخييف

الرفيق العزيز زانخييف.

إرد على رسالتك، المتأخرة تأخرا ملحوظا، لانها لم تقدم الي من جهاز اللجنة المركزية الا البارحة فقط.

ان شرحك لموقفي من مسألة اللهجات صحيح تماما.

ان اللهجات «الطبقية» التي نفضل أن نسميها ألسنة خاصة «Jargon»، لا تخدم جماهير الشعب وانما تخدم طبقة اجتماعية عليا محدودة. وفوق ذلك، ليس لهذه الالسنة نظام قواعد أو أرومة اساسية للكلمات خاصة بها. ومن وجهة النظر هذه، لا يحتمل أن تتطور هذه الالسنة الخاصة الى لغة مستقلة.

ومن جهة اخرى، تخدم اللهجات المحلية (الاقليمية) جماهير الشعب ولها نظام قواعدها وأرومتها الاساسية للكلمات الخاصة بها. ومن وجهة النظر هذه، يمكن لبعض اللهجات المحلية، في عملية تكوين الامم، أن تصبح أساسا للغات الوطنية، وتتطور الى لغات وطنية مستقلة. وهذا – مثلا – ما كان من أمر اللهجة الاورالية (Karsh – Oral) (النطق الأورالي) للغة الروسية، التي كونت أساس اللغة الوطنية الروسية. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن لهجة (Poltava – kieu) التي كونت أساس اللغة الوطنية الاوكرانية. أما بالنسبة الى اللهجات الاخرى لهذه اللغات، فقد فقدت أصالتها وغاصت في تلك اللغات وغابت فيها.

وتحدث عمليات مخالفة، فعندما تنحدر اللغة الواحدة للقومية التي لم تصبح بعد أمة، لعدم توفر الشروط الاقتصادية الضرورية للتطور، نتيجة تفكك دولة تلك القومية، واللهجات المحلية لم يكن لديها متسع من الوقت لتكوين لغة واحدة، تنتعش هذه اللغة وتفسح المجال لتشكيل لغات مستقلة مختلفة، وربما كانت هذه هي، فعلا، قضية اللغة المنغولية الواحدة.

11 تموز 1950

البرافدا 2 آب 1950

الى الرفيقين: «د. بلكين» و «س. فورر»

استلمت رسالتيكما.

ان خطأكما هو أنكما خلطتما شيئين مختلفين واستبدلتما موضوعا آخر بذاك الذي أوضحته في ردي على الرفيق كراشنينكوفا.

1 – في ردي ذاك انتقدت ن. ي. مار الذي، بعد أن خلط بين اللغة (النطق) والفكر، يفصل اللغة عن الفكر. وهكذا ينحدر الى المثالية. لذلك، استشهدت في ردي بالكائنات البشرية السوية التي تملك القدرة على الكلام. وفوق ذلك، اكدت انه يمكن في مثل هذه الكائنات البشرية أن تقوم الافكار على اساس من المادة اللغوية فقط، ذلك أن التفكير المجرد الذي لا يرتبط بمادة لغوية، لا وجود له بين الناس، الذين يملكون القدرة على الكلام.

وعوضا عن الموافقة على هذه الاطروحة او رفضها، قدمتما كائنات بشرية شاذة، قدمتما اناسا بدون لغة، صما بكما، لا يملكون لغة لتصريف امورهم، ولا يمكن، طبعا، أن تقوم أفكارهم على أساس المادة اللغوية. وكما تريا، ان هذا موضوع مختلف كليا لم اتناوله ولا يمكن ان اتناوله ما دام علم اللغة يربط نفسه بالكائنات البشرية السوية التي تملك القدرة على الكلام، وليس بالصم البكم الشاذين الذين لا يملكون القدرة على الكلام.

لقد استبدلتما بالموضوع الذي كان قيد المناقشة موضوعا آخر ليس تحت المناقشة.

2 – يستفاد من رسالة الرفيق بلكين انه يضع في مستوى واحد كلا من لغة الالفاظ (اللغة الكلامية) و «لغة الارشادات» (لغة اليد حسب تعبير ن. ي. مار). ويبدو أنه يعتقد أن لغة الاشارة ولغة الالفاظ شيء واحد من حيث الاهمية، حيث أن المجتمع البشري، في وقت ما، لم يكن يعرف لغة الالفاظ، ففي ذلك الوقت قامت لغة «اليد» بدور لغة الالفاظ التي ظهرت متأخرة.

واذا كان الرفيق بلكين فعلا يعتقد ذلك، فانه يقترف خطأ جسيما. فاللغة الكلامية او لغة الالفاظ، كانت أبدا اللغة الوحيدة للمجتمع البشري التي قامت بدورها كوسيلة كافية للتعامل بين الناس. والتاريخ لم يعرف مجتمعا بشريا واحدا، مهما كان تخلفه شديدا، لم تكن له لغته الكلامية الخاصة. وعلم العروق[3] لم يعرف قبيلة واحدة متخلفة، مهما كانت بدائية، حتى لو كانت بدائية اكثر من الاستراليين أو من «Tierra del Fuegoms»[4] في القرن الماضي، لم تكن لها لغتها الكلامية الخاصة. في تاريخ الجنس البشري، كانت اللغة الكلامية احدى القوى التي ساعدت الكائنات البشرية على الخروج من العالم الحيواني، والانضواء في جماعات، وتطوير القدرة على التفكير، وتنظيم الانتاج الاجتماعي، وشن نضال ضد قوى الطبيعة، وتحقيق درجة التقدم التي نحن عليها الآن.

وفي هذا الخصوص، فان أهمية ما يسمى لغة الاشارة يمكن اغفالها، نظرا لفقرها المدقع ومحدوديتها. واذا خصصنا كلامنا، فان لغة الاشارة هذه لا تعتبر لغة، بل ليست بديلا لغويا يمكن احلاله، بطريقة من الطرق، محل اللغة الكلامية، انها ليست اكثر من وسيلة مساعدة بامكانيات محدودة جدا، يلجأ اليها الانسان احيانا لتأكيد هذه النقطة أو تلك من كلامه. ان مقارنة لغة الاشارة باللغة الكلامية تشبه تماما مقارنة المعزقة الخشبية البدائية بالجرار الحديث بمحاريثه الخمسة او بالحفارة الحديثة.

من الواضح أنك استفدت من المثال في الصم البكم أولا وفي علوم اللغة ثانيا. ولا شك أن هذا المثال هو بالضبط الذي دفعك الى أن تضع أمامي عددا من المسائل. وما دمت تلح فلا اعارض في تلبية طلبك. كيف تكون الامور بالنسبة للصم والبكم؟ هل يملكون القدرة على التفكير؟ هل تظهر عندكم أفكار؟ نعم. انهم يملكون القدرة على التفكير وتظهر عندهم افكار. ولكن من الواضح انه ما دام الصم البكم مبعدين عن القدرة الكلامية، فان افكارهم لا يمكن أن تقوم على اساس اعادة اللغوية. فهل نستغل هذا لنعني ان أفكار الصم البكم عارية، غير مرتبطة بـ «مستويات الطبيعة»

---

3 - Ethnography

4 - سكان جزر تيرا ديل فوغو في اميركا الجنوبية. «المترجم»

(التعبير لـ «ن. ي. مار»)؟ كلا. ان افكار الصم البكم تظهر وتقوم فقط على أساس الصور والاحساسات والمفاهيم التي شكلوها في الحياة اليومية على موضوعات العالم الخارجي وعلاقاتهما بأنفسهم، فالفضل يعود الى البصر واللمس والذوق والشم. وبدون هذه الصور والاحساسات والمفاهيم يكون الفكر خاويا، وبعيدا عن كل مضمون، أي ليس له وجود.

22 تموز 1950

البرافدا 2 آب 1950

الى الرفيق أ. خولوبوف

لقد استلمت رسالتك، وتلكأ جوابي بعض الوقت نظرا لضغط الاعمال.

ان رسالتك تنطلق ضمنيا من مسوغتين: أولا من مسوغة انه يجوز الاستشهاد بهذا المؤلف او ذاك بعيدا عن المرحلة التاريخية التي يعالجها. ثانيا من مسوغة ان هذه النتيجة والصيغة الماركسية او تلك، التي حصلت نتيجة دراسة مرحلة من مراحل التطور التاريخي، صالحة لكل مراحل التطور، لذلك يجب أن تبقى دون تغيير.

يجب علي القول ان المسوغتين كلتيهما خاطئتان خطأ فادحا.

اليك بعض الامثلة:

1 – في أربعينيات القرن الماضي، عندما ما لم يكن ثمة رأسمالية تتطور بهدوء تقريبا، عبر خط تصاعدي، منتشرة في أصقاع جديدة لم تدخلها من قبل، وقانون التطور المتفاوت لم يكن قد صيغ تماما بعد، استنتج ماركس وانجلز ان الثورة الاشتراكية لا يمكن أن تنتصر في قطر واحد، ويمكنها ان تنتصر فقط نتيجة ضربة مشتركة في كل الاقطار المتمدينة، او في معظمها. وغدت هذه النتيجة، بالتالي، مبدأ مرشدا لكل الماركسيين.

ولكن في بداية القرن العشرين، وخصوصا في فترة الحرب العالمية الاولى، عندما غدا واضحا لكل امرىء أن رأسمالية ما قبل الاحتكار تطورت تماما الى رأسمالية احتكارية، عندما اصبحت الرأسمالية الفتية رأسمالية محتضرة، عندما كشفت الحرب العالمية الضعف الشديد لجبهة الرأسمالية العالمية، واوضح قانون التطور المتفاوت أن الثورة البروليتارية سوف تنضج في أقطار مختلفة وظروف مختلفة، انتهى لينين، انطلاقا من النظرية الماركسية، الى النتيجة القائلة ان الثورة الاشتراكية في الظروف الجديدة للتطور، سوف تحقق النصر الكامل في قطر واحد وبشكل منفصل، وفي الوقت نفسه، اصبح انتصار الثورة الاشتراكية في كل

الاقطار، او معظم الاقطار المتمدنة، مستحيلا بسبب النضج المتفاوت للثورة في هذه الأقطار، أي ان الصيغة القديمة لماركس وانجلز لم تعد تناسب الظروف التاريخية الجديدة.

ومن الواضح اننا هنا امام نتيجتين مختلفتين حول مسألة انتصار الاشتراكية، اللتين ليستا متناقضتين وحسب، بل تنفي كل واحدة الاخرى.

ان بعض الجامدين[5] والتلموديين الذين يقتبسون ميكانيكيا دون الغوص الى جوهر المسألة، وبعيدا عن الظروف التاريخية، يمكن أن يقولوا ان احدى هاتين النتيجتين يجب أن تطرح بعيدا لكونها خاطئة كليا، بينما النتيجة الاخرى، باعتبارها نتيجة صحيحة كليا، يجب أن تطبق في كل مراحل التطور. وليس في مقدور الماركسيين على أية حال الا ان يعلموا ان الجامدين والتلموديين على خطأ، ليس في مقدورهم الا أن يعلموا بأن النتيجتين كلتيهما صحيحتان، مع أن صحتهما ليست مطلقة، فكل نتيجة كانت صحيحة في وقتها: نتيجة ماركس وانجلز لفترة رأسمالية ما قبل الاحتكار، ونتيجة لينين لفترة الرأسمالية الاحتكارية.

2 – قال انجلز في كتابه «انتي دوهرنغ» انه بعد انتصار الثورة الاشتراكية، تبدأ الدولة تتلاشى. ومن هذه الارضية، بعد انتصار الثورة الاشتراكية في قطرنا، شرع الجامدون والتلموديون في حزبنا ينادون بأن على الحزب أن يسعى سعيا حثيثا لتأكيد التلاشي الفوري لدولتنا وحل مؤسسات الدولة وتسريح الجيش النظامي.

بيد أن دراسة الوضع لعصرنا قاد الماركسيين السوفييت الى النتيجة القائلة انه في ظروف التطويق الرأسمالي، عندما تنتصر الثورة الاشتراكية في قطر واحد فقط، بينما تحكم الرأسمالية كل الاقطار الاخرى، يجب ألا تضعف بلد الثورة المنتصرة، وانما عليها أن تقوي، بأية طريقة، دولتها ومؤسسات دولتها، وجهاز المخابرات والجيش، اذا ارادت بلد الثورة هذه ألا يسحقها الطوق الرأسمالي. وخلص الماركسيون الروس الى نتيجة هي أن صيغة انجلز التي تأخذ بالحسبان انتصار

---

5 - Dogmatists

الاشتراكية في كل الاقطار، أو في معظمها، لا يمكن تطبيقها في حالة انتصار الثورة في بلد منفرد والرأسمالية تسيطر على كل الاقطار الاخرى.

من الواضح أن لدينا هنا صيغتين مختلفتين بصدد مصير الدولة الاشتراكية، كل واحدة تنفي الاخرى.

وربما يقول الجامدون والتلموديون ان هذا المثال يخلق وضعا لا يطاق، ذلك أن واحدة من هاتين الصيغتين يجب أن تطرح بعيدا لانها خاطئة كليا، والاخرى بما انها صحيحة كليا – يجب أن تطبق على كل مراحل تطور الدولة الاشتراكية.

ليس في مقدور الماركسيين، على أية حال الا أن يعلموا أن الجامدين والتلموديين على خطأ، لان كلا من الصيغتين على صواب، من أن صوابهما ليس مطلقا، فكل صيغة صحيحة في وقتها: صيغة الماركسيين السوفييت – لفترة انتصار الاشتراكية، بلد واحد او عدة بلدان، وصيغة انجلز – للفترة التي سوف يقود فيها الانتصار المتتالي للاشتراكية في اقطار منفصلة الى انتصار الاشتراكية في معظم الاقطار، فتكون الظروف الضرورية قد تحققت لتطبيق صيغة انجلز.

ويمكن ان يضاعف عدد نظائر هذه الامثلة.

الشيء نفسه يقال عن صيغتين مختلفتين حول مسألة اللغة، أخذتا من المؤلفات المختلفة لستالين، واستشهد بهما الرفيق خولوبوف في رسالته.

يرجع الرفيق خولوبوف الى مؤلف ستالين «حول الماركسية في علم اللغة» حيث خلص الى نتيجة وهي ان التداخل بين لغتين سيؤدي الى غلبة احداهما بينما تخلي الثانية مكانها، وبالتالي فان عملية التداخل هذه لن تنتج لغة ثالثة وانما تحافظ على احدى اللغتين. ويرجع ايضا الى نتيجة اخرى استخلصها من تقرير ستالين الى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي (البلشفي)، حيث قال: في فترة انتصار الاشتراكية على النطاق العالمي، عندما يصلب عود الاشتراكية وتصبح جزءا من الحياة اليومية، سوف تنصهر اللغة الوطنية حتما في لغة مشتركة واحدة لن تكون، بالطبع اللغة الروسية ولا الالمانية وانما ستكون لغة جديدة الى حد ما. وبمقارنة هاتين الصيغتين والوقوف على عدم مطابقتهما ونفي احدهما للاخرى،

ينحدر الرفيق خولوبوف الى وهدة اليأس. يكتب الرفيق خولوبوف «أفهم من مقالتك ان تداخل اللغات لن يؤدي الى لغة جديدة أبدا، بينما كنت قبل مقالتك مقتنعا قناعة ثابتة بكلامك في المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي (البلشفي) القائل «ان اللغة في الشيوعية سوف تنصهر في لغة مشتركة واحدة».

ولا شك ان الرفيق خولوبوف، وقد اكتشف تناقضا بين الصيغتين وغدا مقتنعا تماما انه يجب ازالة التناقض، يعتبر من الضروري ان نتخلص من احدى الصيغتين لكونها مغلوطة وأن نتمسك بالصيغة الاخرى لكونها صحيحة بالنسبة الى كل الظروف وكل الاقطار، ولكن اية صيغة يجب أن نتمسك بها – انه لا يعرف. ان الحصيلة هي في طبيعة الوضع اليائس. وان الرفيق خولوبوف لا يشك حتى في أن كلا الصيغتين يمكن أن تكون صحيحة – كل واحدة بالنسبة الى ظرفها الخاص.

تلكم هي أبدا قضية الجامدين والتلموديين الذين لا يغوصون الى جوهر المشكلة، يقتبسون ميكانيكيا دون أن يحسبوا حسابا للظروف التاريخية التي تعالجها الشواهد، ويجدون انفسهم حتما في وضع يائس.

وبعد، اذا ما اختبر المرء جوهر المشكلة، لم يعد ثمة مبرر للنظر الى الوضع بيأس. والواقع ان كتاب ستالين «حول الماركسية في علم اللغة» وكلام ستالين في موتمر الحزب السادس عشر يرجعان الى عصرين مختلفين كليا، واليهما ترجع الصيغتان اللتان هما ايضا مختلفتان.

ان الصيغة التي قدمها ستالين في كتابه، في القسم الذي يتحدث فيه عن تداخل اللغات، ترجع الى فترة ما قبل انتصار الاشتراكية على الصعيد العالمي، حيث الطبقات المستثمِرَة هي القوة المسيطرة في العالم، حيث الاضطهاد القومي والاستعماري يبقى قويا، حيث العزلة الوطنية وانعدام الثقة المتبادل بين الامم تعززهما الخلافات بين الامم، حيث لا توجد مساواة قومية في الحقوق، حيث تداخل اللغة يكون حلبة صراع من اجل سيطرة احدى اللغات على الاخريات، حيث الظروف الضرورية للسلام والتعاون المخلص بين الامم واللغات مفقود، حيث لا يوجد تعاون ولا تطوير متبادل بين اللغات كما هي الحال الآن، وانما اهتضام لغات

وانتصار لغات اخرى. ومن الواضح انه في مثل هذه الظروف يوجد فقط انتصار للغات واندحار للغات أخرى. انها بالضبط الظروف التي راعتها صيغة ستالين عندما نصت على أن تداخل اللغات، ولنقل تداخل لغتين، لن يؤدي الى تكوين لغة جديدة، وانما يؤدي الى انتصار لغة واندحار اخرى.

أما بالنسبة الى صيغة ستالين الاخرى المأخوذة من كلامه في مؤتمر الحزب السادس عشر، في القسم الذي تناول فيه انصهار اللغات في لغة واحدة مشتركة، فانها تتعلق بفترة اخرى، وبالضبط، فترة ما بعد انتصار الاشتراكية على الصعيد العالمي، حيث لا يعود للاستعمار العالمي وجود، حيث يطاح بالطبقات المستثمِرَة ويسحق الاضطهاد القومي والاستعماري، حيث العزلة القومية وعدم الثقة المتبادلة بين الامم يستبدلان بالتعاون والثقة المتبادلة بين الامم، حيث المساواة القومية موضع التنفيذ، حيث تنتهي سياسة اضطهاد اللغات واهتضامها، حيث يتوطد التعاون بين الامم، ويصبح من الممكن للغات القومية ان تفني الواحدة الاخرى اثناء تعاونها مع بعضها. ومن الواضح انه في هذه الظروف لا يمكن أن يكون ثمة اضطهاد واندحار لبعض اللغات، وانتصار للغات اخرى. هنا لن يكون لدينا لغتان احدهما تذوق مرارة الاندحار والاخرى تخرج منتصرة من الصراع، وانما يكون مئات من اللغات الوطنية، التي تظهر منها، نتيجة التعاون الاقتصادي والسياسي والثقافي الطويل الامد بين الامم، بادىء ذي بدء، اغنى اللغات الاقليمية الموحدة[6]، وبالتالي سوف تنصهر هذه اللغات الاقليمية (Zonal) في لغة عالمية واحدة، ولن تكون بالطبع الالمانية ولا الروسية ولا الانكليزية، وانما لغة جديدة تتمثل اعظم العناصر من اللغات الاقليمية (Zonal) والوطنية.

والخلاصة ان الصيغتين المختلفتين تتطابقان مع فترتين مختلفتين في تطور المجتمع، ولانهما تتطابقان مع الفترتين المختلفتين، لهذا السبب بالضبط، تعتبر كل واحدة صحيحة بالنسبة لعصرها.

---

6 - الاقليمية (Zonal) يقصد بها اقليما ارضيا يشمل عدة بلدان وليس اقليما بالمعنى الضيق ضمن البلد الواحد. «المترجم».

والطلب بألا تتغاير هاتان الصيغتان بحيث لا تنفي الواحدة الاخرى، سخيف تماما فالطلب بألا تتغاير مرحلة سيادة الرأسمالية مع مرحلة سيادة الاشتراكية، بحيث أن الرأسمالية والاشتراكية لا تنفي الواحدة الاخرى.

ان الجامدين والتلموديين يأخذون بالماركسية ويفصلون النتائج والصيغ الماركسية وكأنها مجموعة من العقائد، التي لا يقاوم «التغير الاحدث» فيها، التغيرات القائمة في ظروف تطور المجتمع. وهم يؤمنون انهم اذا حفظوا هذه النتائج والصيغ عن ظهر قلب، وشرعوا بالاستشهاد بها خبط عشواء، سوف يصبحون قادرين على حل أية مشكلة، معتقدين ان النتائج والصيغ المحفوظة سوف تخدمهم لكل الاوقات وكل الاقطار، لكل مناسبة من مناسبات الحياة. ولكن هذا ليس الا اعتقاد أولئك الذين يرون الكتابات الماركسية فقط وليس جوهرها، الذين تعلموها عن طريق حفظ نصوص من النتائج والصيغ الماركسية، لكنهم لم يفهموا معناها.

ان الماركسية هي علم القوانين التي تتحكم بالطبيعة والمجتمع، علم ثورة الجماهير المُضطَهَدَة والمستثمَرَة، علم انتصار الاشتراكية في كل الاقطار، علم بناء المجتمع الشيوعي. ولا يمكن للماركسية، بما انها علم، أن تقف، انها تتطور وتكتمل. ولا تستطيع في تطورها الا أن تغتني عن طريق الخبرة والمعرفة الجديدة — وبالتالي فان بعض صيغها ونتائجها لا يمكن الا أن تتغير بمرور الزمن، لا يمكن الا أن تستبدل بصيغ ونتائج جديدة، تتطابق مع المهمات التاريخية الجديدة. ان الماركسية لا تعرف صيغا ونتائج ثابتة تلتزم بها لكل المراحل والعصور. ان الماركسية عدوة لكل جمود عقائدي.

28 تموز 1950

البرافدا 2 آب 1950